

سُقُوطُ
مَفْهُومِ الْقَوْمِيَّةِ الْوَاقِدِ

أنور الجندى



دار الإقتصاد
بغداد

على طريق الأصالة الإسلامية

١٦

سُقُوطُ مَفْهُومِ الْقَوْمِيَّةِ الْوَاقِدُ

بقلم

أنور الجندى

دَارُ الْأَنْصَارِ

مكتبة - طباعة - نشر - توزيع
٨١ شارع البستان أمام جامع الجمهورية حايكة
٩٢١٢٨١

سقوط مفهوم القومية الوافد

كشفت الأبحاث الجادة التي قام بها باحثون محايدون ، أن نظرية القومية العربية التي طرحت في أفق الفكر الإسلامي ، كانت بمثابة مؤامرة استهدفت تمزيق الوحدة الإسلامية ، السياسية والاجتماعية والفكرية ، وأنها هي أخطر المحاولات لتفريق عقد الأمة الإسلامية ، التي كانت مترابطة تحت كلمة التوحيد . وقد جاءت هذه الأبحاث بعد ركام ضخم من السكتابات والدراسات ، التي قدمت منذ الثلاثينات من هذا القرن ، بهدف تدمير وحدة العروبة والإسلام الجامعة ، التي كان يصدر عنها رجال العمل السياسي في البلاد العربية .

كانت الدعوة إلى القومية ، بمثابة دعوة إلى الإقليمية أولاً ، في الاقطار التي لها تاريخ قديم سابق للإسلام ، وكانت من ناحية أخرى ك محاولة لفصم عرى العروبة والإسلام ، فقد استعملت كلمة القومية بمفهوم الإقليمية في مصر باسم الفرهونية ، وفي

صوريا باسم الفينيقية ، وفي العراق باسم الآشورية والبابلية ، وفي المغرب باسم البربرية .

وتركزت حول هذه الدعوى دراسات مضللة ، قام بها مستشرقون يتبعون وزارات الاستعمار في فرنسا وإنجلترا مستهدفين إحياء هذه النحل التي قضى عليها الإسلام ، حين جاء قاطعاً لذلك الارتباط القديم الذي يفرق بين اجتماع أمة الإسلام وبين ارتباطها وتاريخها ولغاتها القديمة .

الإبعاد والتفسيرات :

وحتى نعرف أبعاد قضية القوميات وتفسيراتها الوافدة ، يجب أن تراجع نصريماً تردّد على ألسنة الكثيرين من دعاة السياسة في أوائل هذا القرن ، يلخصه الدكتور د صمويل زوير ، كبير المشرّين البروتستانت في الشرق في قوله : « إن أول ما يجب عمله للتمضاء على الإسلام هو إبعاد القوميات » .

ولقد كان أول عمل بدأت به الإرساليات التبشيرية في بهوت هو الدعوة إلى العروبة بهدف تمزيق وحدة العرب والترك ،

القائمة تحت لواء الخلافة العثمانية ،

وكان حملة هذه الدعوة هم مسيحيو لبنان ، الذين كانوا يطالبون بكيان مستقل داخل الدولة العثمانية ، ثم ظهرت الدعوة إلى القومية التركية ، تحت اسم الطورانية عن طريق حزب الاتحاد والترقي ، بهدف إخراج تركيا من طابعها الإسلامي ، فلما نجح حزب الاتحاد والترقي في الوصول إلى الحكم أخذ يعمل على تتركيز الشعب وتحويل المحاكم والمدارس ودور الحكم إلى اللغة التركية والقضاء على اللغة العربية ، ومن هنا بدأ العرب في المملسة العثمانية في الدفاع عن أنفسهم فنشأت الدعوة إلى العروبة ، فلما سقطت الدولة العثمانية اتخذ العرب من الترابط تحت اسم العروبة أسلوباً من أساليب مقاومة النفوذ الأجنبي .

تفسير غربي:

غير أن الاستعمار والنفوذ الأجنبي، عمد إلى طرح مفهوم للعروبة مستمد من مفهوم القوميات الغربية استشرى أمره وحاول أن يقضي على ترابط العروبة والإسلام، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فإن الفكر الوافد حاول أن يطرح هذه نظريات، ليمزق وحدة الفكر

الإسلامي ، ويحول به دون الالتقاء في كيان جامع موحد ،
فكانت هناك الدعوة إلى القومية الوطنية ، وتمثلت في الدعوة
إلى القومية اللبنانية والقومية السورية والقومية المصرية ، وكانت
هناك دعوة القومية المستمدة من مفهوم النظرية الألمانية أو
النظرية الفرنسية ، وإحداهما تعتمد اللغة أساساً لها ، وتعتمد
الأخرى مفهوم المشيئة .

ولم تكن الدعوة إلى القومية الوطنية في حقيقتها إلا دعوة
إلى الإقليمية في محاولة لا تعطاه هذه 'لاقليميات طابع القوميات .

التحريف:

ثم لما برز طابع العروبة ، الذي كان هو منطلق سوريا والعراق
والحجاز في مواجهة الطورانية أولاً ، ثم في وجه الاحتمال
الفرنسي لسوريا ولبنان ثانياً ، كوقوف مفروض لا يحيد عنه
هناك رأت حركة التغريب أن فكرة العروبة بمفهومها الإسلامي
التي أخذت تترعرع ، بمثابة خطر جديد عليها فأخذت تتدخل
فيها لتحريفها وإفسادها ، وذلك بعد أن فشلت دعوة الإقليميات
لذلك فقد عمدت إلى طرح نظرية القومية العربية وحشدت لها

حشوداً ضخمة ، بهدف زعزعة المفومات الأصلية ، وتعرية
العروبة من كل فاعليتها المرتبطة بالإسلام سواء على صعيد السياسة
كالترابط والانفتاح بين الأمم الإسلامية ذات التاريخ والثقافة
والعقيدة الواحدة ، والتي تجمعها منذ خمسة عشر قرناً أرضية ثابتة
ورصيد ضخم .

ماذا يريدون ؟؟ :

كالت النظرية الغربية في القومية تريد أن تحمل معها ثلاثة
محاذير خطيرة :

أولاً : طابع الاستعلاء الجندى للثقاق في مواجهة الأمم
الإسلامية .

ثانياً : طابع الانعزال الكامل عن التاريخ والتراث
والمفومات الإسلامية .

ثالثاً : خلق وجود معاصر منفصل تماماً عن الإسلام وعن
العالم الإسلامي متصل بالغرب ، مندغم في تفسيراته وقيمه
وطوايقه .

وماذا غاب عنهم :

وقد غاب عن الذين طرحوا النظرية الغربية في القومية ، أن هناك عاملاً ضخماً لا سبيل إلى تجاهله أو إغفاله من أى نظرة علمية ذلك هو الطابع الفكري العميق الذى صاغه الاسلام للمشاكل العربى ، فى أولى مراحل وجود العرب كامة ، بعد أن كانوا مجموعة من القبائل المتصارعة ، وأن هذا الطابع قد أقام حداً فاصلاً عميقاً (فكرياً وسياسياً واجتماعياً) بين ماضى العرب وللعربين والشاميين والعرب والمغاربة جميعاً ، وكل من عاش فى هذا العالم المعتمد ، الذى سيطر عليه الاسلام وشكله الفكر الاسلامى ، وخاصة تلك المنطقة التى تعربت وأصبحت تسمى بحال العروبة ، وأنه لا سبيل إلى إعادة هذه الأمم الى ماضيها القديم ، بعد أن نقلها الاسلام ، تلك النقلة الواسعة من الأساطير والوثنيات والعصبيات والصراع الفكرى والفراغ الاجتماعى ، الى ذلك الطابع المتكامل من التوحيد والعدل والحق والمقومات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والقانونية الواضحة فى ذلك النظام المحكم الذى نزل به القرآن ورفع لواءه الاسلام .

في عام ١٩٤٠ تقريباً بدأت عملية طرح النظرية الغربية في
القوميات وظهرت أفلام تتحدث عن فلسفة القوميات ، وتشكلت
هذه الفلسفة على هيئة المؤسسات وأحزاب ومدارس فكرية ،
وبدأت نقمة انطلاقها من لبنان ومن خلال خريجي معاهد
الرساليات ، والعائدين من بعثات تعليمية أجنبية ، واتخذ
بعضهم الأسلوب المجهج الحالم الصوفي ، الذي يحاول أن يعطي كلمة
القومية العربية مفهوم العقيدة الدينية ، ويروج لها في إطار من
الزماير والموسيقى والأناشيد والتراتيل ، على نحو يؤثر في نفوس
الشباب الطامع المتوقد حاسة الذم مثل أعلى وفكرة ومنهج حياة.

وقد شاء أصحاب الدعوة ، أن يرجعوا التاريخ المكتوب
الذي عاشته العروبة في كف الاسلام ، أن يرجعوه الفقه
من جديد ، ليدخلوا فيه كلمة القومية التي لم يكن يعرفها ، والتي
لم تجر على الألسنة والأقلام إلا في أوائل هذا القرن الميلادي ،
والتي ينذر أن يوجد نص مكتوب لأديب أو مفكر أو شاعر
ينخذ من كلمة (قوم) شعراً له أو منطقاً في قصيدة أو مقال
أو كتاب .

ذلك أن أصحاب هذه الدعوة لم يفهموا أن يقولوا كلمتهم اليوم ، ولكنهم حاولوا أن يقيموا لها تاريخاً طويلاً بعيد المدى ، يسبق ظهور الإسلام ويمتد بعده ، ولا شك أن تلك المحاولة كانت باطلة وزائفة ، ذلك لأنه لم يكن هناك إلا تاريخ واحد ، هو تاريخ الأمة الإسلامية ، وللعرب جزء منه ، ولم يكن هناك ما يفرق بين العرب والمسلمين خلال ذلك التاريخ الطويل ، الذى كان العرب والترك والعمرس والهنود فيه كلاً كاملاً .

ولارىب أن تفسير التاريخ الإسلامى تفسيراً قومياً ، كان مضللاً وكاذباً ، حيث لم يكن هناك انفصال بين الإسلام والعروبة إلا بعد الاحتلال الأجنبى وانفصال الدولة العثمانية عن العرب .

كذلك فقد كان هدف دعاة القومية أن يفصلوا العرب عن الفكر الإسلامى ، وعن الامتداد الإسلامى ، وأن يخلقوا كياناتاً هرباً جامداً يهود بالعرب إلى كنعان وعدنان وإرم ، وإحياء هذا التراث القديم ، بعد أن سيطر الفكر الإسلامى أربعة عشر

قرنا غاملة على هذا العالم الواسع ، واستوعب في أحماقه كل فكرة صائبة ونظرة صالحة من ذلك القرائث النديم .

كيف انكشف الفساد ؟ :

وإذا كانت بعض الظروف قد أفسحت المجال لطرح النظرية الغومية الوافدة حيننا ، فاتها لم تلبث أن تكشف فسادها وخرابتها على الروح الإسلامية وأنها ليست منبعثة من وجودنا ، وليست تمثل فسادنا أو كياننا أو جوهر قيمنا .

إن أخطر ما وقع فيه هؤلاء الدعاة جميعا ، أنهم صدروا عن مفهوم وافد تشكل في إطار المجتمع الغربى ، وواجه المسيحية الغربية ، وفاتهم اختلاف العلاقة بين العرب والمسلمين ، وبين مفهوم الإسلام كمعقدة تختلف عن المسيحية ، في أنها ليست نظرية لاهوتية أو علاقة بين الله تبارك وتعالى والفرد ، ولا صلة لها بأنظمة المجتمع ، كما فاتهم أن الإسلام عقيدة ومنهج حياة .

ولأن القائمين بالدعوة كانوا غربيي الفكر . فقد فاتهم فهم حقيقة الإسلام احاطة بهر الدين والدولة ، وبين الدين والمجتمع ، وأنه حضارة وثقافة ومنهج حياة .

وبالجملة فإن دعاة القومية الوافدة قد جانبوا الأصالة والفهم العميق للإسلام والعروبة، وكانت محاولاتهم في فرض مفهوم غريب دخيل وافد، محاولة مهترة، شأنها شأن المحاولات التي فرضت على الفكر الإسلامي من قبل ومن بعد، وقد أعلنت هيمها فشلاها الكامل، كالديمقراطية والاشتراكية والوجه — ودية وغيرها.

وشهد شاهد :

ويصدق في هذا دارسان غريبان أولهما : « أرنولد توينبي » الذي يقول في كتابه : « المسيحية بين أديان العالم ، أن للشيوعية والقومية هما العدوين للأديان ، إذ هما شكلان مختلفان لموضوع قاسد ، ألا وهو عبادة الإنسان لنفسه .

ويقول « ألفريد كانتول سميت » : « إن القومية المجردة ليست هي القاعدة الملائمة للنهوض والبناء وما لم يكن المثل الأعلى — لي إسلاميا على وجه من الوجوه فإن تشمر اليهود ، ونارايغ الشرق الأدنى الحديث يدل على ذلك ، .

بل إن مستشرقاً آخر ينصح قومه بالتخلي عن طرح هذه

النظرية لفسادها ذلك هو البرت حوراني ، الذي يقول :
« ليست القومية نظاما فكريا متكاملا ، ولكنها نقطة بداية
تنظيم المجتمعات المتحدة ، فان الشرق العربي قد وصل إلى مرحلة
ما بعد القومية » .

القومية العربية وهدفها :

وهذه حقيقة فإن السنوات الأخيرة قد كشفت عن فساد
منطلق القومية ، وعجزها عن أن تحقق شيئا ، بل أنها قد سجلت
على نفسها ذلك الأثر السيء العميق ، الذي أخر نمو الوحدة
الإسلامية ، التي هي الطريق الأصيل للالتقاء الجامع ، تحت
لواء العقيدة والمنهج ، وقد تبين أن "قومية أيديولوجية غربية"
كانت في انبعاثها بالغرب تستهدف تحطيم الوحدة المسيحية
الجامعة ، التي كانت تشكل أطارا عاما في الغرب ضد اليهودية ،
التي كانت تعيش في أحياء الجيتو دون أن تختلط بالحياة الاجتماعية
الغربية ، وقد رأت الدوائر الأجنبية التي طرحتها في أفق العالم
الإسلامي أنها يمكن أن تمزق وحدة العالم الإسلامي .

ولقد كانت القومية الطورانية ، قومية لا دينية محل لوائها

ضياء كوك الب وأحد أخادف ويوسف أشفورا ، وكانت تدعو
إلى أيجاد طوران ، كما ظهرت القومية الفارسية ، لتنظم أيجاد
فارس قبل الإسلام والـير على خط كورش و قورش ، أما
القومية العربية فقد قادها لورنس هميل الخوات البريطانية
والصهيونية مما ، وأسلمها إلى مجموعة من دعاة التفريب واللاميز
الاتحاد والترقي العرب .

هوية دعاة القوميات :

وكان كتابها ودعائها يحملون المبدأ لكل ما هو إسلامي .
وقد اختلفوا في كل شيء ، واتفقوا على شيء واحد هو رفض
الإسلام ، عتيقة وتاريخها ، وحضارة ، وأعلنوا عداوتهم للتراث
والأيجاد التاريخية والفصحى ، وحين أعلنوا أن مقومات القومية
هي اللغة والتاريخ فاتهم أن اللغة هي الفكر واللغة ، وأن التاريخ
لا يفصل بين العروبة والإسلام وأن الإسلام - صيغة وسط بكل
معنى الكلمة لها ركائزها من اللغة والمشارع المشتركة ووحدة
الهدف .

ولأن الإسلام هو الذي حمى الوطن العربي من الصليبيين ،

بعد أن أقاموا أربع إمارات صليبية لهم على ساحل الشام ، لجاء صلاح الدين المسلم الكردي لينقل العروبة من وهدتها ، وقد اكمل هذا الدور قطار ويبرس ، وهما من المسلمين لا العرب . لقد جاء بعد صلاح الدين الكردي ، المماليك الذين حوا الأرض العربية من التتار وقضوا على بقية معادل الصليبيين .

وفي الجزائر التي وصفها الفرنسيون بأنها فرنسا الجنوبية ، كان الإسلام ، وليست اللغة العربية هي التي حمت الأمة مائة وثلاثين عاماً بعد أن تحطمت اللغة والثقافة ، ولولا القرآن ما كانت هناك قوة في الأرض تستطيع أن تحمي اللغة العربية في الأرض الجزائرية بعد أن ظلت تتعرض لحرب منظمة مدى قرن وربع قرن من الزمان . ولا ريب أنه حيث يسقط الإسلام يسقط العرب ، وأن العرب بغير الإسلام لا شيء ، فهو الذي شكلهم وأقامهم كأمة ، وهو الذي رفع أعلامهم على مشارف القارات الثلاث .

طبيعة التكوين الأصيل :

ولا ريب أن نظام الإسلام قد كون رجالاً عربياً وعجمياً

لكنوبنا نفسياً وعقلياً فصدروا عن حركتهم التاريخية ، عن هده
ومستته، وحيث لم يناقض الإسلام المقومات الجنسية، وترك لكل
أمة شخصيتها النابعة من التطورات المختلفة عبر القرون، بل لقد
حافظ على الكيان الخاص لكل بنية .

التفسير القومي تفسير جزئى :

ولا ريب أن التفسير القومى جزئى وناقص ، ومناقض
للحقيقة التاريخية الجامعة ، ومناقض فى نفس الوقت لعموم
الرسالة التى لا تعترف بالحركات القومية الضيقة الأفق ، ولا ريب
أن الإسلام يمكنه أن يظل حياً بدون العروبة . ولكن العروبة
وحدها عازلة عن إثبات وجودها ، ومعنى هذا أن الإسلام قوة
دافعة للعروبة وليس قطاعاً منها ، بل هو سبب قوتها وتماسكها
وبقاءها ، كما أنه ليس حرباً عليها . وأن أى محاولة للفصل بينهما ، يسيء
إلى العروبة أكثر مما يسيء إلى الإسلام .

منزل الوحى :

وقد شرف الله تبارك وتعالى أرض العروبة فجعلها منزلاً

لوحية وقرآنه ومنبتا لحاتم رسله ، وقد امتزجت العروبة بالإسلام
امتزاجاً قوياً ، جعل غير العرب ينظرون على أنهما شيء واحداً
وقد وقف القرآن الكريم سداً منيعاً لحماية اللغة العربية من الذوبان
والانصهار في اللامجالات .

ولقد كانت كل مشروعات تبسيط اللغة العربية تهدف إلى
الفضاء على القرآن ، بينما وقف القرآن سداً منيعاً مستصياً على
التحريف والتصحيف .

من المجاهدين الأول :

وفي مراجعة مع السيد محمد الدين الخطيب ، رحمه الله .
حول مفهوم العروبة أبان حركتهم بعد الحرب الأولى قال :

إن مفهوم العروبة ومفهوم الإسلام لم يكونا منفصلين وكانت
العروبة تعني إرتباطها بالإسلام ولا تنفك عنه ، ومفهوم الإسلام
أنه قام ويقوم بالأمة العربية الأولى التي لم تكن منفصلة عن أرضية
الفكر الإسلامي ، وإنما كانت حلقة من حلقاته ، وإذا كان دعاة
الفكر الإسلامي قد عملوا في جانب العروبة في هذه الفترة ، أي

بعد الحرب العالمية الأولى ، فمن هذا أنها قد أصبحت هي القطعة
التي جرى من خلالها العمل لمقاومة الاستعمار والنفوذ الغربي
وحركة التغريب والغزو الثقافي .

وقد حرص المسلمون على الربط بين مصر العربية ومصر
الاسلامية ، وكانت لهم وذلك نظريه دفيهة وصحة أما العربونية
والفينيقية والبربرية ، فقد كشف الأبحاث من بعد عن أنها فروع
من العروبة وأنه لا تضارب بينها ، فهي موجات خرجت من
الجزيرة العربية . واستقرت هنا وهناك على طول الأرض
العربية وعرضها ، وأن محاولة الاستعمار في استئخدامها للتفريق
كانت باطلة .

تجربة مصرية:

وبصور هذه الرحلة الاستاذ د إدريس الكنتاني ، في بحث
مطول فيقول : « أنها كانت تجربة مرة عاشها العرب منذ الحرب
العالمية الأولى ، وتمثلت في انهاء كثير من الوعاء والأحزاب ،
للدواع وأسباب مختلفة لحلق إطار موحد للعمل يكون أساساً
للنهضة العربية ، ويجمع شمل الأمة العربية ، وقد قبل العرب هذا

الاطار باعتبار انه مجرد غطاء خارجي لمحتوى اساسي هو الاسلام،
ولكن هذا الاتجاه تطور فيما بعد ليحتمل المعطاء، على محل
المحتوى، وبدأ الناس يبحثون عن فلسفة خاصة وهكذا أصبحنا
نحن الذين أيدنا (القومية العربية الاطار) نراها تتحول إلى
المذهب ورغم أنها لم تتمتع بالتأييد لزمان أطول، ولو أنها
استطاعت أن تحقق اقل قدر من النجاح لا لبنت اصالة بنائها،
وأنها قامت على ارض صلبة لا على كسبان من الرمال، ولابد
عجز مذهب القومية ان يخاق في نفوس اصحابه شيئاً من هذا
الايمان او قليلا من التصحية .

بعد أن دفعنا الثمن :

هذه الوحدة العربية لم تتحقق حتى بين دعايتها وأنصارها
الذين اتخذوها شعاراً لهم ، ولم تحقق شيئاً للعرب المؤمنين بها ،
ومعنى هذا أن تجربة هذا المذهب تكون قد استنفذت غرضها ،
بعد أن أدى العرب ثمن فشلها ظاهرياً ، وبنفتح الباب أمام الإسلام
من جديد برحمة جدد من العرب أنفسهم ، ويتضح العرب إلى
تحقيق وحدتهم ولكن باسم العقيدة التي وحدتهم أول مرة ، وباسم
العقيدة سيواصلون معركتهم على واجهتين .

ضد اللغزاف داخل الوطن الأكبر، وضد الاستعمار
والصهيونية في كل مكان في الأرض وعندئذ يكون مصر اليةطة
الإسلامية قد انتهى، ويبدأ فجر النهضة وشرق شمس الإسلام
من جديد على العالم .

وقال : « إن هناك مراحل قطعها الاستعمار والغريب في
تعويق الانتقال من اليةطة إلى النهضة : منها الإقليمية والقومية
والماركسية، وللقانون الوضعي والنظام السياسي الغربي والتعليم
بمنهج الغرب العلمانية ، ومحاولات تخذيل الفصحى لغة القرآن » .

سقطات المحاولة وسقط البديل :

ولقد سقطت تلك المحاولات ، التي كانت تستهدف أن تجعل
القومية بديلا عن دين الله ورسالة محمد ﷺ لأنها أرادت أن
تفرغ العروبة من محتواها الإسلامي ، أمة وعقيدة وأرادت أن
تقيم قومية حاكمة منفصلة مغالقة عن أرض الإسلام كما هي مغالقة
عن قيم الإسلام نفسه ، فيها المفهوم المادي الوثني ، وفيها أحقاد
الأمم ، حيث أن مفهوم الإسلام لا يفصل بين الدين والدولة ،
ولا يعرف حكومة إلهية ولا يعرف تفرقة بين الناس على
أساس من العنصر والعرق .

وبالجملة فإن الفكرة القومية كانت تيارا من تيارات الغزو الثقافى ، استحدث أساليبه بعد أن سقطت دعوى الوطنيات والاقليميات ، وكانت مهمته إفريغ القضية السياسية والاجتماعية بوجه عام من المحتوى الإسلامى ، وإحلال فلسفة أخرى وعقيدة أخرى محل عقيدته . واستبدال رابطة أخرى برابطته ، إزول الشعوب الإسلامية بعضها عن بعض نهائيا ، بحيث تكون صلة بعضها ببعض كصاتها بأى شعب من الشعوب الأخرى التى تدعى بالرئسية والماركسية وبذلك تنسف الجسور التى تصل بين الشعوب الإسلامية .

ولقد كان طرح فكرة القومية العربية عاملا التمهيد لطرح فكرة القومية الصهيونية ومجالا لظهور دعوة إلى القومية الكردية ، وغيرها من قوميات ، وكان أخطر ما هنا لك محاولة دعاة القومية إلى إيجاد منهج أشبه بالدين يحل محل الإسلام ، وتلك دعوتهم إلى إيجاد نظام نظرى شامل يستوعب الحياة الإنسانية بأكملها ، فلا يخرج عن دائرته قطاع ما من قطاعات الوجود البشرى ، وصياغة عقيدة قومية كلية تضامى فى كليتها وشمولها الفكرة

الشيوعية ، أى أن الحرف الحقيقى هو إحلال القومية محل الإسلام وأن يصبح العرب بين خيارين : ما الشيوعية أو القومية المادية الوثنية ، وكأننا أبعد الحق الأصيل وهو الإسلام الذى يعمل المصح الأصيل ، والذى يقاوم زيف الشيوعية والذى تمجز القومية مهما أوتيت من قوة أن تحققه وهى ركب مفتعل معارض للمطردة الإنسانية ، بحاف لطبيعة الحياة وقد سموا هذا الخليط الزائف (عقيدة قومية) .

والسؤال الآن :

هل استطاعت الفكرة القومية الوافدة أن تحتوى مفهوم العروبة والإسلام ؟؟ والواقع أن مضمون الفكرة القومية عند أمم الغرب كانت على الدوام متقرنة بفكر للتفوق الشعبى والتمتار الأمم الأخرى ، وهو معنى لا يقره أى مسلم أو يرضاه ، كذلك فقد عارضت للفكرة القومية الوافدة مفهوم الإسلام ، واعتبرته ديناً لا هوتياً — وهو ليس كذلك — بل هو منهج حياة ونظام مجتمع ، وقد كشفت الدراسات عن أن نظرية القومية الغربية هى دعوة عنصرية تستهدف قطع الروابط والعلاقات الجامعة بين

المسلمين ، وتفريق الأمة الإسلامية إلى كيانات فضلا عن عملهم
 في عزل العرب عن التاريخ الإسلامي بطولاته ومواقفه ،
 وحصرها في التاريخ الإقليمي ، وكذلك عزل الأدب العربي
 الحديث عن الأدب الإسلامي ، وفرض مناهج التفكير الغربي في
 السياسة والاقتصاد والقانون والتربية . وهذه كلها محاولات
 تستهدف تفريق الغرب من إسلامهم ، واقدسقطت هذه المحاولات
 سقوطا تاما ، وتنبه العرب إلى أهداف المؤامرة ، ويكفيهم أن
 مفكروا الغرب قد كشفوا هديتها وزيف وجهتها .

والمعروف عندنا ظهرت هذه الدعوة عارضاها جماعة من الفكرين
 الاسلاميين يومئذ ، بدعوة مضادة تحت شعار الجامعة الإسلامية
 باركها وأيدها السلطان عبد الحميد ، المهتمى عليه ، رحمه الله ،
 وكان من دعاة هذه الفكرة الامام محمد عبده رحمه الله .

وسقطت نظرية ساطع الحمصري :

حدثني الدكتور مختار الوكيل مدير مكتب الجامعة العربية في
 جيفيف . . وهو رجل صادق مؤمن أنفي خلال عمله زار الاستاذ
 ساطع الحمصري سويمرا وراى السيد عهد الفتاح حسن السفه

المصري دعوته إلى طامام الغداء فلما قدم مع الدكتور الوكيل حياة
السفير المصري فقال :

« مرحباً بالمناضل الكبير في خدمة العروبة والاسلام » وقد
حجب الرجلان من ساطع المصري الذي رد في عنف وحدة :

« هرب نعم .. اسلام لا .. أنا لا ييك ، أنا لا ييك » .

وكلمة « لا ييك » تعني أن صاحبها هلماني أو لا ديني .

ما تزال ندوة الاعتصام تركز على تاريخ الاسلام والعرب
المعاصر ، وعلى الاعلام البارزين : سعد زغلول ، الطفي السيد ،
ساطع المصري الخ .. وقد أحرز ساطع المصري شهرة وافرة
في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية باعتباره « فيلسوف القومية
العربية » حيث روج لنظرية خطيرة كانت بعيدة الأثر في حجب
مفهوم العروبة الأصيلة المرتبطة بالاسلام .. فمكراً وعقيدة ،
وبالعالم الاسلامي تساملاً وأخاء .. لقد كان دعاة حركة اليقظة
في البلاد العربية يرون أن الجامعة الاسلامية قائمة بين العرب
والمسلمين (فرسا وتركيا) بعد زوال الدولة العثمانية .. ولكن
ساطع المصري كان من أوائل الدعاة إلى فصل العرب عن المسلمين

بمفهوم القومية الغربى الوافد الذى طرحه فى أفق الفكر السياسى
 العربى .. وهذا يرجع الى أن ساطع الحصرى كان ثمرة من أنضج
 ثمار المدرسة الاتحادية التركيه ، وأكبر الدعاة الذين نقلوا مفهوم
 القومية الطورانية التركية الى أفق العروبة التى كانت ترتبط بمفهوم
 الاسلام فى العلاقة بين الشعوب التى جمعها التوحيد والمقرآن ونبوذة
 محمد صلى الله عليه وسلم ، والفكر الاسلامى الاصيل .. لقد كان ساطع الحصرى
 مديراً للتعليم فى الدولة الاتحادية التى حكمت تركيا بعد إسقاط
 السلطان عبد الحميد بمفهوم العلمانية والطورانية .. وقد تعلم فى
 مدرسة الاتحاديين ، وآمن بفلسفتهم ، ونقل فكرهم ومضامينهم
 الى العرب ، وذلك فى سبيل تمزيق الوحدة الاسلامية الجامعة
 عرباً وتركياً وفرنساً ، وخلق أسلوب القوميات والاقليميات التى
 تقوم على الصراع والاستعلاء بالمالس والعنصر .. وهو أول من
 حمل لواء العنصرية والعرق والدم بديلاً لمفهوم الاسلام الذى
 يقوم على الاخاء الانسانى وقد كان فلسفة الفكر القومى التركى
 من الاتحاديين تلاميذ للفلسفة الوضعية متعصبين بالازعة الطورانية
 العدوانية ، وقد استمد ساطع الحصرى مفهومه للعروبة من
 مفهوم القومية الغربية ، والنظرية التى طبقها الاتحاديون فى تركيا
 وقد ركز على اللغة والتاريخ وعزلهما عن الفكر الاسلامى الجامع

ككل ، كما ركز طه حسين على الأدب وعزله عن وحدة الفكر
الإسلامي .

ونظرية ساطع الحصري التي روجت لها بعض الأحزاب
السياسية العربية قد أثبتت خلال أكثر من ثلاثين عاماً فشلها الذريع
وعجزها عن العطاء . . لأنها فرغت مفهوم العروبة من قيمه
وتاريخه وعناصره الأخلاقية والروحية وجماعته مفهوماً ماديّاً خالها
. . وقد اعترف ساطع الحصري بأن إسرائيل قومية تقوم على
الدين ورفض اعتبار الإسلام مقوماً بوصفه ديناً . . ذلك أن
مفهوم ساطع الحصري للإسلام ناقص ، فهو يراه ديناً لاهوتياً
وليس ديناً ومنهج حياة ، ونظام مجتمع على النحو الذي يؤمن
به دعاة العروبة الإسلامية . . لقد فهم الإسلام على أنه دين
عبادي ، كما فهم الأوروبيون المسيحية ، ولم يفروا بين الدين بعامّة
والإسلام بخاصة ، ولم يفرقوا بين المهر والبيّنة والجذور الثقافية
التي يختلف فيها عن مفهوم القومية في أوروبا . ولقد كان مفهومه
للعروبة ناقصاً ، فلم يصل إلى مفهوم العروبة المترابط مع الإسلام
هذا الترابط الجذري الذي لا سبيل للإنفكاك عنه .

ويرى كثيرون من الباحثين أن ساطع الحصري لم يعايش المناخ

العربي قبل أن يضع مجموعة آرائه ، وأنه استهدى بمناخ البعثان
والنظرية الألمانية في حركته القومية التي رفع فيها شعار اللغة في
مواجهة الدولة العثمانية لتتحرر منها ، وأنه كان حاقداً على العثمانيين
حقه المحافل الماسونية التي احتضنت الاتحاديين ووجعهم وجعها
ودفعهم إلى الدعوة إلى الذئب الأغبر كرمز لها بدلاً للقرآن .
وقد كان أكبر أسانذاته في مفهوم القوميات : ما كس مولر ،
ونوردوا ، وهما فيلسوفان يهوديان قصدا من وراء نظرية اللغة
إلى إحياء القومية اليهودية . وقد اعتبر ساطع الحمصى اللغة
أساس القومية ، وعارض نظرية الأرض التي دعا إليها أنطون
سمادة دون أن يتنبه إلى أن العكس لا اللغة هو مصدر الوحدة .

وقد أجرى ساطع الحمصى الجدل حول هديد من النظريات
الأوربية في القومية دون أن يواجه جوهر المفهوم العربي :
الإسلامي المصدر والجذور ، هذه الجذور التي تجعل من العسك
فصل اللغة عن الفكر واعتبارها مقوما منفصلاً ، أو الإعتماد
على نظرية بقاء اللغة أو ضياع اللغة ، مع أن الأساس هو بقاء
العقيدة والفكر الذي يحمي وجود الأمة الحقيقي ، والواقع أن
ساطع الحمصى كان غريب الفكر أساساً ، بل وغريب الذوق أعجمي
النطق ، وأن تركيبه الثقافي والاجتماعي كان يحول بينه وبين تبني نظرية

هربية أصيلة مستمدة من واقع الأمة العربية وكيانها ، وذاتيتها
 وقيمها التي لا تنفصل فيها اللغة والتاريخ عن الفكر نفسه ، وفي
 ذلك مغالطة أو جهل . ذلك أن اللغة العربية ليست لغة أمة لحسب
 ولكننا في نفس الوقت لغة فكر وعقيدة فإذا كان العرب وهم
 مائة مليون يتحدثون بها فإنها لغة العقيدة والفكر لألف مليون
 من المسلمين مرتبطين بالقرآن الكريم ، والسنة النبوية ، وذلك
 التراث الضخم من الفقه والعلم والتاريخ . وأن اللغة لا تنفصل
 عن الفكر وأن تاريخ العرب لا ينفصل عن تاريخ الإسلام ،
 ومرجع ذلك إلى أن ساطع الحمصى نشأ - كما ذكرنا - في
 بيئة الاتحاديين الأتراك الذين كانوا صنائع الفكر التلويدي ، والذين
 نشأوا في أحضان المنظمات الماسونية ، وحملوا لواء الإيمان بالفصل
 من الدين والمجتمع ، وفهموا الإسلام فهماً غريباً على أنه دين
 لاهوتي ، وعلى هذا الفهم الخطيء القاصر قامت نظرية ساطع
 الحمصى التي لمعت سنوات تحت تأثير الخداع والأكواء ، حتى
 أن بعض دعاة الماسونية في العالم العربي راح يفسر عن طريقها
 تاريخ الإسلام كله ، فيرى أنه تاريخ قوى عنصرى هربية ، ومن
 ثم وجهت عبارات الحق والحصومة إلى الأمم الإسلامية ، وهذا
 هو الثمرة الحقيقية التي كانت تهدف إليها حركة الفز والفخافى

والتفريبي من طرح هذه النظرية القومية ، الإقليمية الضيقة
العدراية الوافدة ، بدلا عن المفهوم الأصيل للعروبة في إطار
الإسلام كما كان يفهمه شكيب أرسلان ورشيد رضا ومحب الدين
الخطيب وحمد البنا ومصطفى السباعي ومحمد المبارك .

هذه النظرية المضطربة التي خدع بها ساطع الحصري الكثيرين
والتي سارها كثير من المثقفين قبل أن يعرفوا سموها العميقة ..
فلما عرفوها هاجوها وكشفوا زيفها ، والنظرية مضطربة من
أساسها ، ولو كان ساطع الحصري حسن النية لصحح موقفه من
فهم الدين فهماً غربياً لائتكامياً وفهم الإسلام بمعناه الجامع بين
المقيدة ونظام المجتمع . لقد اعتمد أساس نظرية مفهوم الدين
اللاهوتي بمفهوم أوربا والغرب للدين ، ولذلك عجزت النظرية
أن تنجح في إطار الفكر الإسلامي ، بل أن كل العناصر التي عالجها
كانت عناصر البيئة الغربية في مواجهة الصراع بين الجامعة المسيحية
الأوربية وبين القوميات الأقلية والتي كانت وراءها اليهودية
الصهيونية لتزيق هذا الوحدة والسيطرة على كل قطر على حدة ،
وهو نفس ما أرادته بالنسبة للجامعة الإسلامية لتركبة التي وقفت
أمام دخول الصهيونيين إلى فلسطين ، وموقفهم من السلطان
عبد الحميد واضح معروف .

لأن كل التعديلات التي تعالجها نظرية القومية الواحدة لا توجد أساساً في المناخ الإسلامي ، هذا فضلاً عن اختلاف مفهوم (العروبة) عن مفهوم القومية في الغرب فضلاً عن اختلاف مفهوم الإسلام عن مفهوم الدين بصفة عامة .

ومصدر خطأ ساطع الحصرى أنه عجز عن فهم أبعاد الفكر الإسلامي وأعماقه ، وعلاقة العرب بالإسلام ، وعاش في مؤلفاته خادماً لنظرية القومية الأوروبية الواحدة التي قدمها النفوذ الأجنبي من بين ما قدم ليحطم الوحدة العربية الإسلامية الجامعة بعد أن عجز عن فرض الأفلاجات القائمة على التاريخ القديم كالفرعونية والفينيقية والآشورية والبابلية . ولما رأى هذه المحاولات تتهاوى ورأى أن العرب يتجهون إلى الوحدة أراد أن يفرغ هذه الوحدة من مضمونها العقائدي الجامع بين الروح والمادة ، والعقل والقلب ، والدين والأخرة إلى مفهوم إقتصادي مادي صرف وبذلك فشلت نظرية القومية الواحدة كما فشلت مناهج التعليم الغربي والقانون الوضعي ، وأسلوب التنظيمات السياسية الليبرالية وغيرها .

واقدر وقف ساطع الحصرى في وهوح موقف المحسومة والحق والتعصب على الإسلام كلما عرض له ، وقد تجاهله طويلاً

في أبحاثه كان العرب لم يعرفوه خلال تاريخهم الطويل ، وكانت
محاولاته للفصل بين اللغة العربية والفكر الاسلامي من ناحية،
وبين تاريخ العرب وتاريخ الاسلام محاولات ساذجة. ثم كشف
نفسه وأسقط مكانته كاملة حين اعترف بالقومية اليهودية القائمة
على الدين ، بينما عارض منهج الدين في فهم اقومية العربية وإن
كانت كلمة (دين) لا تؤدي معنى الاسلام حين يكون البحث
حول العروبة .

وقد ثبت أن ساطع الحصري قد خدم بدعوته وفكره
مفاهيم الماسونية والظرية القومية الوافدة التي كان النفوذ الغربي
حريصاً على تلقيها للعالم العربي، وهي ليست إلا صورة من
مفهوم الاقليمية اللبنانية ، والمعروف أن ساطع الحصري كان من
أعمدة وزارة المعارف في تركيا منذ أوائل حكم الاتحاديين في
تركيا العثمانية إلى أن انتهت الحرب الأولى ، وأنه كان من أخطر
الموجهين للبرامج القومية والتعليمية في العراق ، حيث عمد إلى
فصلها عن الاسلام فصلاً تاماً ، وكان دوره أشبه بدور الدكتور
طه حسين في التعليم المصري .

لقد حاول ساطع الحصري أن يقيم (فكر أعروبييا إقليمي)
منفصلاً عن الاسلام في روحه ومضامينه وشرعيته . . . ولقد

تجاهل أعماق الأثر الذي تركه الإسلام في الفكر والثقافة ، واللغة والتاريخ ، وتجاهل أثر القرآن الكريم في اللغة العربية وفي العرب ومدى ترابط ذلك إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة بالامة الوسطى الحثيثة السمحاء التي جاء بها إبراهيم عليه السلام فربطت هذا العالم الوسط (عالم العرب والإسلام) بروابط تاريخية وثقافية عميقة دعمتها الأديان السماوية التي نزلت في أرض الرافدين ، وختمتها رسالة الإسلام العالمية التي نزلت في الجزيرة العربية .
للعالمين كافة .

رقم الإيداع ٢٢٤٧ / ١٩٨٠

مطبعة دار البيان - بعابدين



على طريق الأصال الإسلامية

داد الأنصاف بعد أن نجحت المجموعة الأولى

تقدم المجموعة الثانية من ١١ - ٢٠

وهي تعالج قضية هامة من القضايا المعاصرة التي تطلب والإسلام فيها

- ١ - الدعوة الإسلامية في القرن الخامس عشر الهجري
- ٢ - بطاوة إسلامية
- ٣ - خليات همم الغيام وقضية الرباعيات
- ٤ - المسئلة النبوية
- ٥ - حركة تحرير المرأة في ميزان الإسلام
- ٦ - خلفية قاسم أمين وحقيقة هدى شعراوي
- ٧ - مفهوم القومية الوافدة - سقطت ثقافتنا مع الحداثة
- ٨ - التجربة الغربية في بلاد المسلمين
- ٩ - البروتاري (واجهة جديدة للعالمية)
- ١٠ - الفكتور - إحياء التراث الجاهلي والوثني
- ١١ - حضارة الإسلام تتفرد من جديد

أنور الجندى

دار الأنصاف

٨١ من البساتن ناهضت على الجبهة - عابدين ١٣٨٨

على طريق الأصال الإسلامية

تعالج قضية هامة من القضايا المعاصرة التي تطلب والإسلام فيها

- ١ - كيف مليون مسلم على البرية القرن الخامس عشر الهجري
- ٢ - الإسلام والإسلام
- ٣ - الصهيونية والإسلام
- ٤ - الحضارة في مفهوم الإسلام
- ٥ - التناجج في مفهوم الإسلام
- ٦ - فسار نظام الربا في الاقتصاد العالمي
- ٧ - الرقة المفضية بعد تاركين علماء فلسطين
- ٨ - نقطة الإسلام في تركيا
- ٩ - كاذبوتات في تاج الدين الحبيب الحديث
- ١٠ - التربية الإسلامية هي بوطا لتحقيق التقدم

أنور الجندى

دار الأنصاف

٨١ من البساتن ناهضت على الجبهة - عابدين ١٣٨٨